عربي من متطوعي جميع البلـــدان العربية ليدافع عن فلسطين ويتدرب في مصر للوقت العصيب ، غير انه لم يخطر على بالنا ان المواثيق الدولية ستمزق ، ويطرح العرب في ارضهم عزلا ، يقتلون ويتشردون ولما تنسحب الجيوش البريطانية كلها مـــن فلسطـين ! (علامة التعجب في النص الاصلي) لم يعط احد منا علم الغيب · وهب انه تألف هـــذا الجيش ، فهل كان بامكانه ان يتسلح تسليحا عصريا او ان يقاتل فعليا دون ان يقفـــوا (ملاحظة : الفاعل هنا ايضا يظل مجهولا) بوجهه لتنفيذ وعد بلفور » ·

وعندما يصل الشيخ بشارة الى وضـــع اليد على المفتاح الحقيقي للازمة (التحالف الاستعماري ـ الصهيوني) صرح عن ما يغفل الموضوع : « يطول المجال بنا جدا فيما اذا استسلمنا لهذه التأملات كلها فـي حالـــة الدول العربية · لنعد الى ما بعد التوقيـــع على الوثيقة ، اردت أن اودع الملك فاروق في جناحه بانشاص ··· »· (المجلد الثاني ـ صفحة ٢٤٧) ·

اما الرياح التي كانت تهب على مخاوف الانعزاليين ، فتذكيها في ذلك الوقت، فيبدو انها كانت تتركز في مشروع سوريا الكبرى الذي كان ينادي به من شرق الاردن الملـــك عبدالله·ولكن من الواضح ان هذا المشروع، حتى كما يتحدث عنه الشيخ بشارة ، لم يكن تعبيراً عن خط النضال الوحدوي العربي، بل كان ـ على العكس تماما ـ من مشاريع المطامع والصراعات الاقليمية ، التـي كانت تثير المخاوف في سورية قبل لبنان ، يقـول بشارة الخوري عن هذا المشروع :

« اصبح مشروع سوريا الكبرى مزمنا، وحكومة شرقي الاردن تثيره من وقت الـى آخر وتحدث اثارته ردة فعل في سوريـــا ولبنان · ورأى بعضهم ان لبنان خارج عن هذا المشروع ، وتساءل لاي سبب يعتـرض عليه كلما اثير · ولكن الامر على خلاف ما يظن لان كل تغيير في الاوضاع القائمة في البلدان العربية من شأنه ان يضعف موقف لبنان ، ولان شرقي الاردن يرغب في حالـة تحقيق المشروعفي أن يعاد النظر في الحدود اللبنانية كمرحلة اولى ، واما المرحلـــة الثانية ففي استجماع دول الهلال الخصيب، وكفى الذين لا يرون في هذا المشروع خطرا على لبنان ، ما ورد في تصـــريح وزيـــر خارجية شرقي الاردن في تشـــرين الثاني ١٩٤٦ من « ان لبنان في حالته الحاضرة قد ارغمت بعض المناطق والاقاليم منه علـــى الانضمام اليه ، وعلى قبـــول شكل حكـــم معين · » ··· واثيرت هذه التصريحـــات اول ما اثيرت في المجلس النيابي واول من اثارها النائب عبد الله اليافي ، وقد تكلم بصراحة ما بعدها صراحة اذ قال : « ··· فانا ، بصفتي نائبا لبنانيا ، ونائبا مسلما سنيا عن لبنان ،، ونائبا عن بيروت ،اعلن اننا في لبنان ، نصارى ومسلمين ، قـــد ارتضينا حالة لبنان الحاضرة بملء رضانا واختيارنا ، واننا لا نبغي عن هذا الوضع بديلا · وان تصريحي هذا يعبر عن رغبـــة اللبنانيين جميعهم ، اكانوا نصـــارى ام مسلمين · وهذه السياسة التي ارتضاهـــا لبنان لنفسه قد تمشت عليها الحكومـــات اللبنانية جميعها ، بدون لبس او ابهـــام ، واختطت لنفسها ان تعلن عنهـــا في كـــل مناسبة ، حتى اصبحت دستـــورها فـــي برامجها الحكومية · ولا ازال اذكر كلمـــة دولة رياض الصلح ، وقد قال فيها : « ان لبنان في وضعه الحاضر هو صنع ايدينا ، واننا سندافع عنه ضد الشرق والغرب » · (المجلد الثاني ـ صفحة ٢٧٦) ·

ولعل ادق تلخيص لتناقضات الخلفيـة الطائفية للمجتمع اللبناني ، كما صورهـــا ابو الميثاق الوطني الشيخ بشارة الخوري، هي التي جاءت على لسانه في خطبة بلديـة بشري ، في ٧ـ١٠ـ١٩٤٥ · (المجلد الثاني ـ صفحة ٢٩٣) :

« كان المسلمون في عهد الانتداب جـــد حذرين ، فلما تحققوا أن الرسالة استقلالية